باب المراسلة والمناظرة

قد رأينا بعد الاختبار وجوب فتح هذا الباب فتحناه ترضيا لي العارف وانهاضا للهمم وتشحيذ للاذهان . ولكن الهفوة فيما يدرج فيه على اصحابه فنحن براء منه كله . ولا ندرج ما خرج من موضوع المقتطف ويراعى في الادراج وعدمه ما يأتي : (١) المناظر والتظير مشتقان من اصل واحد فمناظرك نظيرك (٢) انما الغرض من المناظرة التوصل الى الحقائق . فاذا كان كاشف الغلاط فيه عظيما كان المعترف بغلاطه اعظم (٣) خير الكلام ما قل ودل . فالمقالات الوافية مع الايجاز تستحار على المطولة

اسلوب الفكر العلمي

نقد وعتب

قرأت في مقتطف فبراير الماضي فقال « اسلوب الفكر العلمي » قرأيت كاتبهُ الفاضل قد تعرض لافراد وجماعات فمرّ بالمرحوم السيد جمال الدين الافغاني ،وعلى ذكره تحدّث عن العقلية العربية او الفلسفة العربية كما تحدث عن حركة مصر السياسية الاخيرة ، ووردت خلال ذلك قضايا كثيرة يوجب الانصاف التاريخي وحرمة الحقيقة النزيهة مناقشتها ، وذلك ما اريد التعرض لبعضهِ في كتبي هذه

وضع الكاتب العرب في الدرجة الثانية من درجات — اوغست كونت — وهي التي وصفها بانها لا تعنى من تفسير الظواهر الاّ بنسبة كلّ منها الى مصدرهِ الاول ، وانها لم تلق بجهودها في معرفة السنن التي تحكم العالم، ولم يتحد العقل والمشاهدة فيها ليكوّنا اساس المعرفة واخيراً وصف عقليتهم بانها « عقلية وقفت عند حد الاسلوب الغيبي لم تتعدّهُ ونكبت كل سبيل كان من الممكن ان يصل بها الى الاسلوب اليقيني » وان تلك العقلية في جمال الدين الافغاني قد ناءت بجناحها على نواة الاسلوب اليقيني التي كانت تجمع في افكار الامة ثم تقوم على محوها ولكن عاقت خطاها ولا تزال تعوقها عن الانبعاث في سبيل الحرية الصحيحة ... الى آخر ما اراد الكاتب ان يهوّل

ولكن هذه العقلية قد ورثها جمال الدين لتلميذهِ الاستاذ الامام المرحوم الذي كتب منذ حوالى ربع قرن عن حديث السنن الكونية ما كتب حين تفضل بمناقشة صاحب كتاب فلسفة ابن رشد في دعوى كهذه زعم فيها ان العرب لا يقولون بالاسباب والمسببات

تديناً ، ولا يزال ما كتبهُ في حكمتهِ ومتانتهِ خير صورة لاسلوب التفكر العلمي ، ومثالاً لتلك العقلية التي نعتها الكاتب بما شاء وهو في منالهِ يحسن صنعاً ان راجعهُ او نظر فيهِ ، هذه العقلية التي هذَّبها جمال الدين يعرف لها التاريخ بحق وستدين لها الامة يوم تعرف نفسها جيداً يسابق الفضل على مختلف فروع نهضتها التي يذكرها الكاتب ايضاً

وهلاَّ تعطف نوضعهم في اول مرقاة للدرجة الثالثة وقدر شيئاً مما يشهد بهِ المؤرخون المنصفون من الاجانب او ما يقررهُ اساتذة الجامعات الحديثة من ان العرب لم واضعو قاعدة « جرب واحكم » وانهُ ليرى هذه الشهادات فيما ترجم من كتب امثال « سيديو » و« جوستاف لوبون » وما نشر في الصحف والمجلات من هذا ، وهلاَّ يشفع للقوم عندهُ طلب تجريبي وفلك تحقيقي وهندسة تطبيقية وكيمياء عملية كانت الاساس لهذا العلم الحديث، ومشاهدات صحيحة وملاحظات عميقة في العلوم الطبيعية ، وتصحيح لاخطاء يونانية ، وغير هذا مما يجهلهُ التاريخ ويعترف بهِ اهل هذه العلوم ؟؟؟

وهلا يقدر الكاتب ان دارسي آثار هذا العقل العربي يشكون من الكوى من امعان القوم في الافكار وتغليب الفروض والمطالبة بالبرهان حتى ينتهي الامر الى بديهية ، ويرتكز على المشاهدة او المسلَّمات العقلية ، وان للقوم نظماً للبحث اخرجتها عقلية ناضجة لم تكن تقول هكذا خلق الله ، وهكذا يجري العمل ، بل كانت تدفع بقوة وشدة الى التفكر والتدبر والبحث ولا تزال قواعدهم فيهِ اسلم منطقية وامتن مما نرى الآن ونسمع ، ولا ازال انصح للكاتب ان يقيس بها احكاماً لئلاَّ يقدم على مثل هذه الاتهام المجرد ، والتهكم الشنيع ، والحكم القاسي دون برهان ولا شبههِ ، ولا يعتدل حتى يعرف للقوم شيئاً ولا ينزل على رأي المنصفين فيهم

وانكر الكاتب ان للعرب مدارس فلسفية ، واشار الى انهُ ذاعت بينهم مذاهب فلسفية نقلها المترجمون وجلهم من النساطرة واليهود ووثنيي حران . . . الخ كأنهُ يرى في هذا منقصة ما ، وكأن الحضارة كانت حضارة عربية الدم والجنس . وهذا ليس في شيء من الحق لانها حضارة الاسلام نشأت في كنفهِ وعلى يد الامم التي التف بينها وازال عنها فوارق العصبية ، فتسابقت جهود افرادها على اختلاف محلهم واجناسهم في سبيل العلم والمعرفة على حين قبرت العصبية العربية — في القرن الثاني بقتل الامين — وتقلص ظلها حين كان يمتد رواق هذه الحضارة الاسلامية العربية اللسان والمزاج فلا شيء في نقل النساطرة والوثنيين واليهود . ولا وقت عند القراء للحديث في هذا فلا نطيل الكلام

عن هذه المدارس لان الكاتب قد اعترف ان مدارس المعتزلة قد يصح ان تدعى مدارس يحق الاّ انها ترجع في اصلها ونشأتها الى النظر الديني المشوب بالفلسفة ، كما قال عنها وعن مدارس الاشاعرة وان جماع هذه المدارس وما يجري مجراها مذاهب لاهوتية استعانت بالفلسفة وبعض النظر الفلسفي دون بعض. فهل لهُ — اصلحهُ الله — ان يقول لي ما هذا اللاهوت في الاسلام ، وكم مجمعاً اسلامياً عقدهُ القوم لتحرير مذهب او بحث نظرية ، وما الذي كان يتلقنهُ السلف الاول وهم اصدق الناس فهماً للدين؟؟؟ وما الذي احتاج اليهِ الاسلام قرناً ونصفاً قبل الفلسفة ثم ما الذي استعان بهِ بعد الفلسفة في سبيل تذليل عقبة من عقباتهِ على نحو ما قد تكون المسيحية قد فعلت ؟؟ الاّ ان حكم التاريخ وشهادة الزمن ان الخوض في هذه الكلاميات لم يسبق الفلسفة بل انها ابحاث ترجع الى الفلسفة الصرفة التي لم يحتج اليها الدين ، والكاتب يعيش في بلد اسلامي ففي مكنتهِ ان يعرف ان ليس في قواعد الاسلام الا شهادة الاّ اله الاّ الله وان محمداً عبدهُ ورسولهُ وان البدوي كان يتلقن هذه القواعد في جملة قصيرة ، وان الفلسفة بعد ذلك خلقت كل هذا ، وخاضت حق فيما نهى عنهُ ، وذلك عمل مدارس القوم التي كانت فلسفية صرفة شابها شيءٌ من النظر الديني لا مدارس دينية شابها النظر الفلسفي

و يقودني حديث اللاهوت الذي ذكرهُ الكاتب الى عبارة اخرى وردت في مقالهِ اذ يقول — فالمدرسة القديمة قائمة بين ظهرانينا تتبع سبيل النظر الغيبي بل غالب ما ترجع سبباً الى النظر اللاهوتي — ولعل هذا النظر اللاهوتي شيءٌ مما نقلهُ الكاتب عن «مرتز» في صدر مقالهِ اذ يقول — . . . والزمان الذي تقشعت فيهِ عن المدنية سلطة اللاهوت وزمان الاصلاح البروتستاني » . فاقول للكاتب ومن رأيتهم من القوم يخوض مخاضهُ كثيراً ان هذا الاسلام شيء آخر غير ما تسمعونهُ عند الاوربيين من امر اللاهوت ، ان لديهم كنيسة وسلطة ورجالاً يربطون ويحلون ، وقد وقفوا في سبيل العقل يوماً ما وحرموا وحاكموا وعذبوا على حين ليس لديكم من هذا ولا يكاد يشبههُ شيء على حين ان لا رياسة في دينكم ولا سلطة ولا حل ولا ربط ولا اعتراف ولا احلال ، بل على حين ان هذا اللاهوت لفظ لا معنى لهُ في الاسلام ، لان الاسلام اصلاح عملي حيوي لا يقدس شخصاً ولا يتقيد بشيء ، ويحض على نظر ما في السموات والارض ، ويجعل استعمال العقل شكراً لمنحهِ ، وعلى حين يقول المرحوم الاستاذ الامام — تلميذ جمال الدين صاحب العقلية اياها — ان الكتاب الكريم لا يعرض لتقرير نظريات العلوم لئلا يقف في سبيل العقل

ويحدّ لواء ، مع انهُ هو يستثيره ويستنهضهُ ليستشيرهُ في تعميم اصلاحه فلئن شكا القوم سلطة اللاهوت وعدّوا الزمن الذي تقشعت فيهِ سلطتهُ عن المدنية فاتحة عصر جديد فلا تشكوا معهم وانتم الاصحاء ولا تقعوا في مثل خطأ الاتراك الذين سمعوا حديث السلطتين فذهبوا يقيمون للاسلام بابًا وخليفة صاحب سلطة روحية ؟ واري هذا الخطأ يبدو في مظاهر مختلفة ولكن هذه الحالة لا تتسع لما قال فرصة اخرى وحسبنا هذا الماما واشارة الى ما نريد

واخذ المؤلف على القوم قلة المؤلفات العلمية الصرفة ، ولا ارجع بهِ الى نقل ولا تذكير بان الاحصاء يظهر أن ما ترجم الغرب في نهضتهِ عن الشرق اكثر ما اخذ عنهُ الشرق الى عهد قريب . لا انقل شيئًا من هذا فهو في المجلات اصبح والكاتب يقدرها قدرها ، ولا اذكره بما يبذل الغربيون من جهود و يرصدون من اموال لجمع هذا الشتات ولكني اقول لهُ ان من كتب القوم ما لم تقع عليهِ عيوننا ولا سمعت بهِ آذاننا . وانهُ يحسن بنا قبل النفي ان نتريث وان نقدر انهُ قد يكون في الدنيا ما لم يصل اليهِ علمنا . وان عوادي الدهر قد سطت على اكثر ما بقي لنا واننا حتى الآن لا نعرف صورة ما عن الحياة العملية لاسلافنا وخير لنا ان نبني اولاً ، وان نتذكر ان نهضة الغرب قامت على اساس متين عريض من احياء القديم وبعثهِ ، وهاهم اولاء رجال الغرب يتخصصون في دقائق الفروع بل في توافه الامور ، فحبذا لو كانت لنا بهم في يده نهضتهم وفي رقي مدنيتهم اسوة ما لندرس فروع حضارتنا ، ونرود مجاهل تاريخنا ، ومبهمات آدابنا ، ونستخرج دفائن ميراثنا ، بدل ان نقع الحضارة الغربية ، وجهد اجيال ، وعمل قرون في نقطة مداد نخط بها حكمًا عامًا شاملاً ، وعبارة مطلقة رهيبة ، على حين نسمع بألم شكوى طلبتنا المصريين هنا من خجلهم امام اساتذتهم — غير المستشرقين — في مختلف العلوم حين يسألونهم عن اشخاص وآراء لسانهم لم يسمعوا بها لحظة ما ، وحين يلفتهم استاذ التشريح الى اسم علمي يراه ليس غربيًا ويحسبهُ عربيًا فيظهر بعد يسير من البحث انهُ كذلك ، وعلى حين يختار لهم اساتذتهم الاجانب مواضيع رسائلهم النهائية ابحاثًا عربية و يدلونهم على مراجعها في مخطوطات محفوظة لديهم او على حين لا نعرف من تاريخنا الاّ ما يجود بهِ علينا ياحثوهم ويستشرقوهم فحبذا لو بنينا قبل ان نهدم بل ليتنا نهدم في رفق فلعل في الانقاض ما قد يسلم لنا في البناء الجديد

ورمى الكاتب القوم بأنهم يمزجون الفن بالعلم « حتى انهم وضعوا الموسيقى في الفلسفة بناء على كلمة نقلت اليهم غالبًا عن فيثاغورس » وهكذا لم يتلطف في الوخز ، مع انـ

الموسيقى علم وفن ، وانما كان فلاسفتهم يدرسون العلم ولهم فيهِ نظريات لا تزال اليوم حديثة ،ولصفي الدين عبد المؤمن البغدادي كتاب مخطوط يوجد هنا في برلين ليس الاَّ مناقشة لنظريات عملية صرفة يعجب بهِ الاخصائيون من الالمان وغيرهم ، كما ان لهم ابحاثاً نفسية في علاقة الانغام بالالوان ، وعلاقتها بالأراييح — الازهار — وهو ما يعتبر بحثاً جديداً شيقاً و يدرسهُ في جامعة برلين استاذ الموسيقى وعلم النفس البروفسور فون هورن بوستيل Von Horn Postil وللكندي الفيلسوف رسالة مخطوطة في الموسيقى توجد ايضاً في برلين تناول فيها هذه الابحاث الشيقة ، وقد اعجب بها الاستاذ الالماني لاخمن واشترك مع الشاب المصري الفاضل الدكتور محمود الحفني الذي اتم دراسة الموسيقى ببرلين في احياء هذه الرسالة وتفسيرها ولا يزالان يعملان على احياء غيرها من نفيس هذه الآثار. واما فن الموسيقى أو الموسيقى العملية فقد دعوها صناعة الغناء وذكر ابن خلدون في مقدمتهِ فصلاً عن هذه الصناعة بين غيرها من الصنائع فلم يكن فلاسفة العرب ملحنين ولا مغنين ولا اصحاب صنعة ، كما لم يكن زرياب واسحق وسعيد وشيعتهم فلاسفة. وما يرى كاتبنا الفاضل في ان الاوربيين قدوتنا وسادتنا يتابعون القوم في هذا الخلط ويدرسون الموسيقى في قسم الفلسفة من جامعاتهم كما هو الشأن هنا في برلين اذ يدرس الطالب الموسيقى العملية والفلسفة وعلماً آخر يختارهُ و يعطى بعد ذلك لقب دكتور في الفلسفة ، فلعل مشابهة السادة لقومنا في الخطأ تخفف من حدة الكاتب عليهم فلا يكونوا معتمدين على كلة نقلت اليهم

و بعد فيسمح لي الاساتذة اصحاب المقتطف الاَّ اعنفهم من كلة عتب قوية يشاركني فيها الكاتب لانهُ رأى « ان للمجلات ابعد الاثر في حركتنا » وعلى قولهِ هذا اعتمد فاقول للمقتطف شيخ المجلات العربية انهُ لا يحسن بهِ ان ينشر مثل هذه الابحاث دون تعليق. لان شباناً متكونين يقدرون ما ينشر في المقتطف حق قدرهِ، فكيف بهم اذا رأوا هذا النسف لحضارة وماض تاريخ دون تعليق عليهِ بتليل ولا كثير . فلتنشروا ايها الاساتذة ما شئتم فما أضيق حرية النشر . ولكن لكم رأياً معروفاً غير هذا الهدم فيحسن ان تذكروا عدم مشاركتكم في الرأي لكاتب يخالفكم ، لاسيما وقد عرف ان جميع ما ينشر بالمقتطف يمر بعين الاستاذ المختص ومراقبتهِ ، وحسبي هذا فقد اطلت وأترك لغير هذه المرة مناقشة ما بقي من القضايا عن مصر وحركتها ونهضتها ،وآمل ان يقبل الكاتب الفاضل ما قدمت بروح الحب للحقيقة وطلبها حيث كانت والله يوفق العاملين

امين الخولي

برلين امام المفوضية المصرية